

# الفكر الاجتماعي عند العرب

صاعد الأندلس (٤٢٠هـ / ١٠٢٩م - ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م)

د. عبدالله حسن العبادي

نجاهل الغربيين للفكر الشرقي :

عندما يبدأ الكثير من الكتاب والأكاديميين الغربيين ولاسيما المهتمين بالدراسات الفلسفية والاجتماعية بالكتابة عن الفكر الاجتماعي وتطوره، فإنهم غالباً ما يبدأون بدراسة الفلسفة اليونانية القديمة، لأنهم يعدونها أول صورة منظمة ودقيقة وصلت إليهم عن الفكر الإنساني المنظم في المسائل الاجتماعية. وقد دأب كثير من المفكرين الاجتماعيين غير الغربيين على تبني وجهة النظر هذه بالرغم من خلوها من أسانيد تاريخية تؤكد صحتها. ومن الطبيعي أن يسهم مثل هذا الاتجاه في التقليل من أهمية الفلسفة



والدراسات الاجتماعية الشرقية والتي كانت سابقة - دون شك - في الظهور على الفلسفة اليونانية. إن هدف المفكرين الغربيين واضح من محاولاتهم المتكررة في تجاهل الأفكار الاجتماعية عند الشرقيين، وعدم الإشارة إليها. فهم بذلك يريدون التقليل من أهمية هذه الأفكار الشرقية عند دراسة أصول المدنيات وأنواع الحضارات الإنسانية والدور الذي أسهمت به هذه الأفكار في تطور الفكر الإنساني.

أما هدف غير الغربيين من تجاهلهم للدراسات الاجتماعية في الشرق القديم فيتجلى في اتباع الرأي القائل إن كل دراسة إنسانية علمية منظمة في تاريخ الفكر الإنساني، يجب أن تكون صادرة من الغرب. ولهذا السبب فنحن نرى معظمهم عندما يتعرضون للفكر الشرقي يمرون عليه مر الكرام، لأنه فكر لا يستحق منهم وقفة تأملية دقيقة. ولا فحوصاً تاريخياً شاملاً. فهو يخلو عادة من الآراء والأفكار العلمية المنظمة. وإذا وجد في التفكير الشرقي القديم بعض اللمحات فإنها - حتماً ودون شك - لا ترقى إلى مستوى النظريات العامة الموجودة في الفكر الغربي. وقد نجد أحياناً بعض المتطرفين الذين يصفون الفكر الشرقي القديم بالضحالة والعقم وبأنه لا جدوى من دراسته. ونذكر رأياً لعالم الاجتماع الأمريكي (هاري المربارنز) في كتابه الضخم «مقدمة في تاريخ علم الاجتماع» يقول فيه: إن أية دراسات منظمة عن الظواهر الاجتماعية لم تبدأ إلا عند اليونان، ذلك أن الكتاب الشرقيين القدامى قد منعهم ظروف حياتهم وأوضاع بيئتهم الاجتماعية، من أن يسهموا في إعطاء أفكار عامة وجريئة تناقش أصل النظم الاجتماعية وطبيعة نشأتها. وسبب ذلك - في نظره - راجع إلى أن النظام الاقتصادي السائد، والنظام الطبقي المقتل، والخرافات السائدة في الوسط الاجتماعي، والنظام الديني الجامد، كل ذلك أدى إلى ثبات النظم الاجتماعية وقديستها. وذلك مما جعل المفكرين الشرقيين لا يستطيعون الجرأة في التفكير على وضع بعض النظريات

الواسعة والمفصلة، والدراسات العلمية المنظمة عن أصل هذه النظم الاجتماعية، وكيف نشأت؟ أو عن الطرق والوسائل التي يمكن أن تسهم في تحسينها وتطورها. بما يخدم المجتمعات الإنسانية<sup>(١)</sup>. وهذا الرأي بالرغم مما يحمله في ثنايا سطره من بعض جوانب الصحة إلا أن جمود بعض النظم الاجتماعية وقديسيتها - وهو في الواقع جمود نسبي - ظاهرة لا تقتصر على مجتمعات الشرق القديم وحدها. فهي موجودة أيضاً وواضحة في المجتمعات الغربية القديمة. وفي مجتمعات العصور الوسطى بل وحتى في المجتمعات الغربية الحديثة وحتى القرن السادس عشر. فكثير من المجتمعات الأوروبية لم تكن عندها فكرة عن مبدأ التطور واختلاف العادات والنظم الاجتماعية باختلاف الأزمنة والمجتمعات. وهناك أسباب عديدة تكمن خلف تجاهل الأوروبيين والغربيين بشكل عام للفكر الشرقي القديم نذكر أهمها فيما يلي :

- ١ - جهل كثير من المفكرين الغربيين اللغات التي كانت سائدة في المجتمعات الشرقية القديمة، بينما نجدهم يعرفون اللغة اليونانية القديمة واللاتينية، مما يسهل عليهم دراسة النظم اليونانية والرومانية دراسة مفصلة.
- ٢ - ونتيجة للسبب السابق، فإن العلماء الغربيين يفهمون التراث اللاتيني واليوناني فهماً كاملاً نظراً لمعرفتهم باللغتين معرفة جيدة، ونظراً لتعلقه بالتراث الغربي الاجتماعي والثقافي وارتباطاته الشديدة من ناحية أخرى. . في حين أن هؤلاء العلماء يجهلون التراث الشرقي القديم لعدم وجود روابط ثقافية واجتماعية مشتركة بينهم وبينه.
- ٣ - يدعي بعض العلماء الغربيين أن الفكر الشرقي فقير وذلك راجع إلى نقص في عقلية الشرقيين وتخلفها عن الغربيين فعقلية الشرقيين كما يزعمون لاتعرف النظريات التحليلية التي يمتاز بها الفكر الغربي. غير أن مثل هذه الأسباب لا يمكنها أن تصمد أمام نتائج الدراسات النفسية والفسيولوجية

والاجتماعية الحديثة التي أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك بأنه لا توجد فروق في العقلية بين جنس وآخر، وأن الفروق الموجودة بين الأجناس البشرية إنما ترجع إلى اختلاف الثقافات بين هذه الأجناس، ولكنها لا ترجع إلى التكوين الجسمي والعقلي ولا أيضاً إلى نقص في التفكير<sup>(٢)</sup>.

### الحملة ضد العرب والمسلمين :

ذهب بعض الغربيين إلى القول إن العرب بطبيعتهم لا يقدرّون على ابتكار جديد في مجال الفكر العلمي والفلسفي على حد سواء، وأن ماضيه تراثهم من أشكال الفكر الأصيل والتميز دُخِلَ عليهم. وأنهم فوق هذا لم يحسنوا فهم ما نقلوا من ذلك التراث ولم يستوعبوا أسرارَه، بل هم شوهوه بشروحه وأتلفوا حقائقه بتعليقاتهم.

وانتقص الحضارة الإسلامية كلها - ومنها العربية - كثير من المفكرين الغربيين من أمثال «سيريل الجود» و«بولس دي لاجار» و«هيجل» و«جولد تسير» و«ماكدونالد» وغيرهم. ذلك أنهم حسب ما يقول «روزنتال» قد صوروا التاريخ السياسي سلسلة ممتدة من الحكام الطفلة، والتاريخ الحضاري تكراراً مملأً للأفكار، والتاريخ الديني بقايا متحجرة منجمدة تنفّلتها الأجيال بعضها عن بعض في حذر. وهكذا بدأ تأخر البحث الفكري والعلمي عند المسلمين عامة من الأمور المسلّم بها.

وتعرضت الفلسفة العربية في أزهي عصورها لحملة ظالمة، غير صحيحة دفع إليها تعصب جنسي وديني شاع في أوروبا خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بوجه خاص. وبدت آثاره واضحة حتى في مجالات البحث الفكري والعلمي. وكان في مقدمة أصحاب الحملة العنصرية «ارنست رينان» و«كرستيان لاسن» و«لجون جوتيه»<sup>(٣)</sup> وخلاصة هذه الحملة كما بدت في أقوال رينان، أن عقلية الساميين - والعرب منهم - عقلية فصل ومباعدة، لاجمع

وتأليف، وأنها تدرك الجزئيات في غير تناسق.. وبالتالي فإن العرب بفطرتهم لا يقدرّون على استخلاص القضايا الأساسية والقوانين العامة، ومن هنا افتقد تراثهم الفلسفي والعلمي عنصر الأصالة والابتكار، ثم امتدح عقلية الأرايين<sup>(١)</sup>. وقال المستشرق الألماني «جيوم ثلمان» إن العرب بطبيعتهم ميّالون إلى التأثير بالأوهام، وأن أهل السنة يقفون عند ظاهر النص، ولا يتجاوزونه إلى ما وراءه من معان وأسرار، وبهذا عاقوا انطلاق الفكر<sup>(٢)</sup>. وغير هؤلاء كثيرون ممن شككوا في أصالة الفكر العربي.

ولكن ما المقصود بالعلماء العرب؟! أنهم كل من أسهم في تقدم العلم والفكر ممن كتبوا بالعربية من أهل العصور الوسطى، وعاشوا في بلاد عربية أو تخضع لحكم عربي، يجمعهم تراث واحد، ويربطهم مصير مشترك. ولعل هذا المدلول يأخذ به كثير من المفكرين الغربيين، الذين سوف نورد أمثلة لأراء بعضهم.

فالمستشرق الروسي «بارتولد» عندما يتحدث عن حضارة الإسلام، فإنه يوحد بينها وبين الحضارة العربية وحضارة الشرق في عهد العصور الوسطى، ويقول: إن العرب لم ينفردوا بابتكار هذه الحضارة، وإنما شاركهم فيها أهل الشرق الأدنى وقسم من أفريقيا عاشوا أمداً طويلاً بعيدين عن حضارة أوروبا، فقد أخی بينهم الإسلام ووجدت بينهم اللغة العربية وهي لغة العلم في تلك العصور<sup>(٣)</sup>.

ويقول المستشرق الإيطالي «نلّينو» في تحديد مفهوم العرب: إن اللفظ كان يطلق حتى أوائل الإسلام على الذين استوطنوا شبه جزيرة العرب، أما بعد القرن الأول فإن اللفظ يتخذ معنى آخر، أطلقه الباحثون على جميع الشعوب التي تقيم في الأمم الإسلامية ونستخدم اللغة العربية في أكثر مؤلفاتهم العلمية<sup>(٤)</sup>.

كما أن العالم الإيطالي المهتم بتاريخ العلوم عند العرب «ألدو ميللي» يطلق لفظ عربي على مفهوم اصطلاحى واسع، فيدخل في مدلول العلم العربي كل إنتاج علمي ازدهر في العصور الوسطى. وخاصة بين القرن الثاني والثالث عشر للميلاد - في إمبراطورية الخلفاء العربية - بصرف النظر عن اللغة التي كتب بها

العلماء - وهي في العادة اللغة العربية - ولهذا نجده يطلق اللفظ على كل من خضع للتأثير المباشر أو غير المباشر للبيئة التي أوجدها الفتح الإسلامي<sup>(٨)</sup>.

وأخيراً نشير إلى ما قاله «جوستاف لوبون» في كتابه (حضارة العرب) إن البلاد التي ينتمي إليها العلماء الذين قيل إنهم ليسوا من أصل عربي، قد دانت لسلطان العرب، وجرى الدم العربي في عروق أهلها. وفكر علماءها في ظل الدولة العربية ورعاية حكامها. وإنه إذا جاز لأحد أن يساوره الشك في رد مؤلفاتهم إلى الروح العربية، جاز له أن يشك في نسبة المؤلفات التي خلفها العلماء الفرنسيون إلى فرنسا، بحجة أنهم ينحدرون إلى شعوب غير فرنسية - وإن شكلت الشعب الفرنسي - كالتورمان والسليتين والاكيتاتين ومن إليهم، ومسايرة لهذا الرأي يجوز أن نستبعد من تراث الفكر الأمريكي أكثر المؤلفات العلمية في شتى مجالاتها بحجة أن أهلها ينحدرون من أصل غير أمريكي كما نستبعد من تراث الرومان أكثر مؤلفاتهم لأن واضعيتها من اليونان... إن تاريخ الفكر لا يعرف حضارة كان كل بناتها من أبنائها الخالص<sup>(٩)</sup>.

#### حياة صاعد ونشأته :

هو الفقيه، العالم، المؤرخ، والقاضي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن صاعد التغلبي، والمعروف بصاعد الأندلس أو القاضي صاعد يرجع نسبه إلى قبيلة تغلب وقد جاءت إلى الأندلس عند الفتح الإسلامي لها كغيرها من قبائل الجزيرة العربية، وكان جده عبدالرحمن بن محمد بن صاعد بن وثيق، سافر للمشرق وبعدها تولى قضاء شذونة (وهي مدينة أندلسية)، ثم استعفى لينصرف للعلم ويتفرغ له، وكان والده ذا مركز مرموق في قرطبة<sup>(١٠)</sup>.

ولد صاعد في المرية سنة ٤٢٠ هـ، بدأ دراسته في قرطبة وأكملها في طليطلة عاصمة بني ذي النون آنذاك (من ملوك الطوائف بالأندلس)، والمصادر لاتبين لنا كثيراً من طفولته. وإنما نعرف من كتابه (طبقات الأمم) بأنه طاف بلاد

الأندلس في شبابه الباكر طلباً للعلم ، ويبدو أنه كان تلميذاً لابن حزم ، ويخبرنا عن ذلك صاعد نفسه في كتابه المذكور عن بعض المراسلات التي كانت تجري بينه وبين ابن حزم<sup>(١١)</sup>.

درس صاعد أيضاً على أبي محمد القاسم أبي الفتح بن محمد بن يوسف ، الذي كان متفوقاً في علوم اللسان والقرآن والفقه . ويظهر لنا من كتابه طبقات الأمم بأنه ذهب إلى طليطلة سنة ٤٣٨ هـ ليدرس العلوم والفقه والأدب<sup>(١٢)</sup> . وقد كانت طليطلة في أيام يحيى بن إسماعيل الظافر - والذي أسس والده دولة بني ذي النون في الأندلس - وقد ازدهرت طليطلة في عهد يحيى وأصبحت مركزاً مشعاً للفكر والفن والأدب وأخذت في هذه المجالات تضاهي قرطبة وأشبيلية .

وفي طليطلة تتلمذ على يد هشام بن أحمد الكناني المعروف بالوقشي . وقد وصفه صاعد بأنه من أعلم الناس بالنحو واللغة ومعاني الأشعار وعلم العروض وصناعة البلاغة منحقيقاً بعلم الحساب والهندسة<sup>(١٣)</sup> .

كما تتلمذ على يد أبي إسحق إبراهيم بن إدريس التجيبي في الرياضيات وعلم الرصد<sup>(١٤)</sup> وقد تكون هناك بعض التأثيرات الأخرى على حياة صاعد ، فمن خلال قراءة الفصل الأخير من كتابه طبقات الأمم وعند حديثه عن العبرانيين مثلاً بأنه كان على علاقة مع بعض علمائهم في سرقسطة وطليطلة . ولكننا لانستطيع التأكد بشكل قاطع من هذه التأثيرات لأن المعلومات التي يذكرها صاعد في كتابه غير كافية .

#### مؤلفاته :

من الكتب التي يذكر صاعد بأنه ألفها ، كتاب في علم الرصد وقد ذكره صاعد مراراً دون الإشارة إلى عنوان الكتاب وقد يكون الكتاب اختصاراً لما ذكره غيره من المؤلفين في علم النجوم<sup>(١٥)</sup> . وله كتاب ثانٍ في جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم ، أما الكتاب الثالث فإنه تحدث فيه عن ديانات الشعوب المختلفة ، ولعله

شبيه بكتاب ابن حزم في الموضوع نفسه ، ويذكر الزركلي بأن صاعداً كتب تاريخاً عن الأندلس وتاريخاً عن الإسلام دون إعطاء أسماء أو عناوين لها<sup>(١٦)</sup>.

وأما أشهر كتبه فهو كتاب طبقات الأمم ، وقد كتبه بعد أن تجاوز الأربعين من عمره ، ولا شك أنه قد استفاد من وجوده مع رجال العلم والفكر في طليطلة وخارجها . كما أن عمله قاضياً أتاح له فرصة مشاهدة العديد من النماذج الاجتماعية والعرقية والتعرف إلى مميزاتهم الذهنية والجسمية .

### تقسيمه للأمم العالم :

يعد صاعد المناخ بارداً كان أم ساخناً أم معتدلاً هو العامل المؤثر مباشرة على استعدادات الأمم ومؤهلاتها الذهنية والجسمية . لذلك نراه يقسم أمم العالم إلى نوعين هما : نوع الأمم العالة ونوع الأمم غير العالة . وينطلق صاعد في هذا التقسيم من نظرية المناخات فهو يعتمد على المتغير المناخي والجغرافي .

### أمم العالم :

قال صاعد : «وزعم من عني بأخبار الأمم ، وبحث في سير الأجيال . وفحص عن طبقات القرون ، أن الناس كانوا في سالف الدهور ، وقبل تشعب القبائل واقتراق اللغات سبع أمم : الفرس والكلدان واليونان والترك والهنود والصينيون»<sup>(١٧)</sup>.

وبعد أن صنّف صاعد هذه الأمم السبع وعدّد لنا الأماكن الجغرافية التي تسكنها . وتحدث عن لغات هذه الأمم وملوكهم وأصل صاعد قائلاً : «فهذه الأمم السبع كانت محيطة بجميع البشر وكانوا جميعاً صابئة يعبدون الأصنام تمثيلاً بالجواهر العلوية والأشخاص الفلكية من الكواكب السبعة وغيرها . ثم افترقت هذه الأمم السبع وتشعبت لغاتهم وتباينت أديانهم»<sup>(١٨)</sup>.



## الأمم التي اهتمت بالعلم :

قال صاعد : وجدنا هذه الأمم على كثرة فرقهم وتخالف مذاهبهم طبقتين ، طبقة عنيت بالعلم فظهرت منها ضروب العلوم وصدرت عنها فنون المعارف . وهذه الطبقة ثمانية أمم : الهند والفرس والكلدانيون واليونانيون والروم وأهل مصر والعرب والعبرانيون . وأما الطبقة التي لم تعن بالعلم عناية يستحق منها اسمه وتعد بعدما ذكرنا ، كالصين ، وأجوج ومأجوج ، والترك وبرطاس والسريز . والخزر ، وجيلان ، وكشك ، واللان ، والصقالبة ، والبلقر ، والروس ، والبرجان ، والبرابرة وأصناف السودان من الحبشة والنوبة والزنج ، وغانة ، وغيرهم<sup>(١٩)</sup> . وأنبه هذه الأمم التي لم تهتم بالعلوم في نظر صاعد ، الصين والأترك . فأما الصين فأكثر الأمم عدداً ، وأفخمها مملكة ، وأوسعها داراً ، وأما حظهم من المعرفة التي برزوا فيها سائر الأمم ، اتقان الصنائع العلمية وإحكام المهن التصويرية . وأما الترك ففضيلتهم التي برعوا فيها وأحرزوا فضلها معاناة الحروب ومعالجة آلتها ، فهم أحق الناس بالفروسية والثقافة وأبعدهم بالطنع والضرب والرمية<sup>(٢٠)</sup> .

وباختصار فإن صاعد الأندلس يقول لنا : إن أمة الصين أتقنت الحرف والصنائع المهنية وأن أمة الترك أتقنت الفنون العسكرية . وصاعد في ملاحظته حول هاتين الأمتين يقترب كثيراً من وضع يده على عنصر مهم غير المناخ هو العنصر التاريخي ، الذي يلعب دوراً مهماً ومميزاً في بلورة الحضارات عند الشعوب أو في عدم بلورتها .

لقد لمس صاعد الأندلس أهمية العامل التاريخي ، لكنه لم يتعمق كثيراً في تحليل هذا العامل ، ولم يكن مدركاً تماماً لدوره الأساسي في حياة الشعوب وتطور حضارتها . ولعل الخطأ المنهجي الذي وقع فيه صاعد هو عدم استمرارية البحث ، ومواصلته في مسألة هاتين الأمتين (التركية والصينية) اللتين خرجتا على القاعدة فوصفهما وسطاً بين القطبين الرئيسيين .

## أهم أفكار صاعد الاجتماعية :

يعطي صاعد، وهو يقسم الأمم القديمة، عامل اللغة الصدارة في تكوين الأمة، بينما يعطي المملكة الواحدة والأرض الواحدة أهمية ثانوية خاصة في مرحلة تاريخية لاحقة. ويربط صاعد بين تنوع الحضارات وبين تطور اللغات، فاللغة هي محور الأمة الرئيسي، وهنا نجد أن صاعد كان سباقاً في هذا التحليل. فاللغتان العربية والعبرية، وهما لغتان انبثقتا من الكلدانية، وتميزت كل منهما عن اللغة الأساسية التي انبثقتا منها، كما تميزت كل واحدة منهما عن الأخرى. فتشكلت حول كل منهما حضارة متميزة ذات خصائص خاصة بها. وكأن صاعد الأندلس يقول هنا: إنه لا تميز حضاري إذا بدون تميز لغوي، فاللغة في رأيه هي البوتقة التي تنصهر فيها حضارة الأمة. ويعلق معتوق على ذلك قائلاً: إن هذه الملاحظة لصاعد تقرّبه جداً من النظريات الألمانية المعاصرة.

فمحرك الحضارة عند أمة بما فيها من علوم ومعارف وفنون، هو اللغة لكن ديناميكية هذا العنصر المهم تظل مجهولة، وإلا فما الذي يجعل هذا المحرك يتحرك عند بعض الأمم فيجعلها تتطلق نحو بناء مستقبل مشرق؟ وما الذي يجعله عديم الحركة عند البعض الآخر تقف عنده ولا تكون لديها فرصة صنع التاريخ والمستقبل<sup>(٢١)</sup>.

والجواب لهذه المسألة عند صاعد الأندلس هو المناخ. إن مفتاح تفسير هذه المعضلة عنده يكمن في الحياة الجغرافية والمناخية المناسبة والمعتدلة. فصاعد لا يقف به فكره عند إبراز الملاحظة الأولى الخاصة باللغة في تمييز أية حضارة من حضارات الأمم. ولكنه يستمر في بحثه عن سبب تحرك اللغة عند شعوب وعدم تحركها عند شعوب أخرى.

إن اللغة بوصفها عنصراً ثقافياً، موجودة عند جميع أمم العالم، ولكن تلقيحها الناجح عند صاعد يكون عن طريق المناخ الملائم والمعتدل. فالشرط الأول

ضروري وهو يتمثل في وجود لغة، لكنه ليس كافياً وهذا ما يجعله يبحث عن سبب السبب فيصل إلى النتيجة التي تحدثنا عنها.

ولكن لماذا يشترط صاعد الانضمام إلى عضوية الأمم العالة والتأهبة أن يكون مناخ الأمة معتدلاً؟، وهنا يجيب صاعد على ذلك بقوله: إن المناخ المعتدل ينشط الأذهان ويفتح الإبداع عند أفراد الأمة. فلا يصيب الأفراد الكسل والتسبل والاسترخاء. فالأمم الثماني التي يذكرها في طبقات الأمم والتي تنتمي إلى أقاليم ذات مناخ معتدل، تتميز بمرعة البديهة وبالفكر والإبداع والابتكار، وهي تستخدم لغاتها لتعميق معارفها وعلومها، ثم تدونها بهذه اللغة الخاصة بها فتأتي معارفها العلمية ومعطياتها الفكرية والفنية مسبوكة في هذا الإطار المميز والخاص بها. ثم تكتسب هذه الأمة بعد فترة زمنية شرعية حضارية بين الأمم، ومكاناً بارزاً يقربها التاريخ ويحفظه لها.

إن اعتدال المناخ يعكس اعتدالاً في الطباع والذهنيات، ومثل هذا المناخ إن توفر يسمح لأفراد الأمة هذه أن يختاروا الموضوعات التي يريدون أن يفكروا فيها بهدوء دون أن يتعرضوا لضغوط معيشية أو مضايقات مناخية قاهرة ومزعجة، فتشتت أذهانهم وترك أفكارهم وعطائهم الفكري والمعرفي. وبذلك يكون المناخ المعتدل عند صاعد هو مناخ الأمم التأهبة والأمم العالة، وهو الحافز المعرفي الأول. ومن خلال هذا المناخ المعتدل يظهر التفرغ لأموال العقل، ففي جوه تتبلور العلوم والمعارف، ويتجدد عطاء الفكر والإبداع الانساني. فالمعادلة النظرية التي يطرحها لنا صاعد بسيطة ومنطقية: الظروف المناسبة تولد عند الإنسان استعدادات جسمية وذهنية خاصة، وهذه بدورها ينتج عنها أفكار وابتكارات وإبداعات خاصة.

الأمم التي لم تهتم بالعلم :

وقد وصف صاعد هذه الأمم بعبارات نختر منها ما يلي: «وأما سائر هذه الطبقة التي لم تكن بالعلوم فهم أشبه منهم بالبهائم منهم بالناس، لأن من كان منهم موطئاً في بلاد الشمال ما بين آخر الأقاليم السبعة التي هي نهاية المعمور في الشمال، فإفراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برد هواءهم وكثف جوفهم فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاقهم فجأة، فعظمت أبدانهم، وابهضت ألوانهم، وانسدلت شعورهم، فعدموا بهذا دقة الإفهام وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة.

ومن كان منهم ساكناً قريباً من خط معدل النهار وخلقه إلى نهاية المعمور في الجنوب لطول مقاربة الشمس رؤوسهم أسخن هواءهم وسخن جوفهم. فصارت لذلك أمزجتهم حارة وأخلاقهم محترقة فاسودت ألوانهم وتقلقت شعورهم، فعدموا بهذا رجاحة الأحلام، وثبوت البصائر، وغلب عليهم الطيش وفشا فيهم الجهل مثل من كان من السوادن ساكناً بأقصى بلاد الحبشة والنوبة والزنج وغانة وغيرها» (٢٢).

كلما اقتربت أمة من خط الاستواء، أو اقتربت من القطب الشمالي كلما خضعت هذه الأمة أكثر للتأثيرات السلبية والناجمة عن وجود المناخين الحار والبارد.

إذن عندما يعيش المرء في إطار مناخ بارد فإن أشعة الشمس منحنية جداً فيمتد الشعر ويبهت لون البشرة ويطول الجسم بشكل غير عادي، فالأجسام العظيمة، تأتي لفقدان التوازن المناخي في بلدان الشمال، في رأي صاعد، إذن فقدان التوازن الطبيعي يؤدي إلى فقدان توازن المواصفات الجسدية، ومن ثم إلى فقدان التوازن في مجال المواصفات الذهنية والفكرية حيث يغلب الجهل والبلادة (٢٣).

فالمنحى البارد جداً والحار جداً كلاهما يؤدي إلى النتيجة نفسها. فمثلما برودة المناخ تؤدي إلى برودة الخاطر والبدئية، وإلى برودة في التفكير والإبداع.

كذلك المناخ الحار فإنه يؤدي إلى النتيجة نفسها فطول الأبدان (عند النوبة مثلاً) الناتج عن عدم توازن في عملية النمو الجسمي عندهم ، يولد عادة ترتبط ، في رأي صاعد ، بعدم توازن البنية ككل .

فهذه المواصفات الجسدية تؤدي إلى مواصفات ذهنية من القياس نفسه ؛ فساكن الجنوب ، مثل ساكن الشمال يشتركون في الكسل والجهل والبلادة ، كما أن طباعهم الحارة أو الباردة تعد معوقات إضافية في وجه تقدمهم الفكري وإبداعهم ذلك أن التطرف في التصرف لا يزيد الذكاء بل يحجمه كما يقول القاضي صاعد .  
منهج صاعد والنقد الموجه إليه :

١ - إن قصماً كبيراً من المعلومات التي يوردها صاعد الأندلس مستقاة من الكتب المتداولة في عصره . معلومات الكثير منها غير دقيقة في غالب الأحيان كما تعد معلومات أولية ومنقولة في الغالب عن مسافرين قد لا يتوخون الموضوعية بالضرورة بل هم يعتمدون على الانطباع الذاتي والتجربة الشخصية .

٢ - قد نستغرب في عصرنا الآن ، لما يقوله صاعد حول كون الصينيين أمة لم تكن بالعلوم ولا بالمعارف ، كما نستغرب قوله كون الأفارقة أقرب منهم إلى البهائم منهم إلى البشر . إن معلومات صاعد هي معلومات عصره . فالثقافات غير منتشرة ، والمواصلات صعبة للغاية . لم تظهر بعد علوم الآثار تنبش حضارات الإنسانية الأولى في أفريقيا أم الشعوب ، ولم يظهر لنا أيضاً باحثون متخصصون ينقبون لنا عن مدى عظمة الحضارة الصينية .

٣ - إن خطأ صاعد لا يمكن في هذه المعلومات التي وصلت إليه ، أو سمع عنها ، خطأ في أنه عدّ الأمتين التركية والصينية لم تغنيا بالعلوم ، وكذلك أهل الحبشة وغانا والسودان ، دون التمييز في الفارق المناخي الذي يعده

هو نفسه مؤشر التحضر والتعلم. فهو لم يحاول الاستمرار في بحث تخلف الأمتين التركية والصينية بالرغم من توفر عنصر المناخ المعتدل لديهما. لم يحاول صاعد أن يتعمق في أهمية العنصر التاريخي، ولم يدرك دوره الأساسي في تجربة الأمم.

٤ - تميز صاعد الأندلس بالموضوعية والتي نادراً ما نراها في العصر الذي عاش فيه وتظل الموضوعية حتى يومنا هذا حجر الزاوية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وبدون الالتزام بها نصاً وروحاً من قبل الباحثين في هذه العلوم تظل فرصة مصداقيتها وعلميتها ضعيفة جداً. هذه الموضوعية جعلته يرى الأمور كما هي عليه، ويطلق تصورات وأحكامه دون الاكتراث لأية حسابات عرقية أو دينية، كما أن هذه الموضوعية جعلته من جهة أخرى، يضع الأمم المسلمة وغير المسلمة في سلة واحدة.

٥ - يجمع صاعد في سلة واحدة الأوربيين البيض، والأفارقة السود، عاداً الأمتين من الأمم المختلفة، فهي أمم تخلت عن الإبداع والمعرفة والابتكار، بسبب معطيات هذه الأمم غير الملانة. فصاعد يجمع في تحليله، الأتراك (مسلمين) والبلغاريين (مسيحيين) والنوبة في السودان (عباد أصنام) ويجعل من المناخ غير الملانم القاسم المشترك للمعارف والعلوم وازدهارهما عند هذه الأمم جميعها، دون أن يلعب العنصر الديني أي دور في التمييز بين هذه الأمم.

٦ - لا ينحاز صاعد الأندلس إلى أي تعصب عنصري أو ديني. فهو يدرس ظاهرة طبقات الأمم انطلاقاً من مؤشر العلوم والمعارف، ومن فرضية المناخ الملانم، أو المناخ المعوق. صاعد هنا يلتزم في دراسته بالموضوعية لأنه يساوي بين الأجناس والأديان المختلفة. فقد كان صاعد موضوعياً بقدر ما كانت تسمح به معارف عصره وثقافة زمانه.

٧ - الشيء الجدير بالتنويه هنا أن يقوم قاضٍ عربي من الأندلس، وفي القرن الحادي عشر، بإعادة اختلاف المستويات المعرفية عند الأمم لا إلى أسباب مثالية أو انطباعية أو أخلاقية، وإنما إلى أسباب مادية، مناخية وجغرافية. ومما يدعو إلى الإعجاب أن يربط هذا العالم العربي الفذ في عصر مبكر جداً بين النتاج المعرفي بين الحيشيات المادية (المناخ) والاجتماعية (الذهنيات والطباع الاجتماعية).

٨ - سبق مفكرنا العربي المسلم صاعد الأندلس مونتكسير الفرنسي صاحب (روح القوانين) في نظريته حول المناخ والذي جعل منه محور تفسيراته الاجتماعية، كما سبق العالم الأمريكي بترم سوروكن والذي عالج هذا الموضوع في سياق حديثه عن الاندماج الثقافي والذي يسببه العنصر الجغرافي.

★ ★ ★ ★ ★

## الهوامش

١ - Harry E. Barnes, An Introduction to the History Of Sociology (Chicago: University of Chicago press, 1948) P.6.

٢ - حسن شعانة سقان: تاريخ الفكر الاجتماعي والدارس الاجتماعية، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٦٦، ص: ١٥.

٣ - أرستو رينان (١٨١٣ - ١٨٩٢) مستشرق فرنسي، رحل إلى الشرق، ونزل لبنان، وعني بالعقائد الإسلامية، وله عدة مؤلفات: منها ابن رشد والرشدية (قال: لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو) وله تاريخ اللغات السامية في جزأين وتاريخ الأديان. كرسيان لاسن، مستشرق ألماني توفي سنة ١٨٧٦ ومن المشاركين في حملة رينان الشعواء ضد الجنس السامي كله.

ليون جوتيه، مستشرق فرنسي، عين أساتذاً للفلسفة الإسلامية في الجزائر، أثاره حي بن يقطان لابن طفيل، وترجم لابن رشد الكشف في مناهج الأدلة. ونشر الدرة الفاخرة للإمام الغزالي وله أيضاً المدخل إلى دراسة الفلسفة الإسلامية. راجع نجيب المعفي، المستشرقون، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م الجزء الثاني.

- ٤ - الجنس الأري هو أصل الأمم الأوروبية وبعض الأمم الآسيوية ممن ترجع لغاتهم إلى السنسكريتية أو غيرها. راجع توفيق الطويل - العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي، دار النهضة العربية، بدون تاريخ، ص: ٢٢.
- ٥ - ثعمان، مستشرق ألماني توفي سنة ١٨١٩. له كتاب المختصر في تاريخ الفلسفة، نشر بالألمانية أولاً سنة ١٨١٢ ونقله إلى الفرنسية الفيلسوف الفرنسي كوزان المتوفى سنة ١٨٤٧، راجع مصطفى عبدالرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٦٦، ص: ٤.
- ٦ - ف. بارنولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، ص: ٢٥.
- ٧ - كارلو نلليو (١٨٧٣ - ١٩٣٨) تعلم العربية في جامعة تورينو، وتقل في التدريس وشغل كرسي الدراسات الإسلامية في جامعة روما، وزار مصر مرات كأستاذ زائر في الفلك والأدب العربي. من مؤلفاته، تكوين القبائل العربية قبل الإسلام وتاريخ علم الفلك عند العرب في العصور الوسطى، ونشر كتاب البيان لابن رشد وغير ذلك.
- ٨ - ألدوميللي، مستشرق إيطالي ومن مؤلفاته كيمياء البيروني، والعلم العربي وأثره في التطوير العلمي العالمي والعلم الإسلامي والرياضيات وغيرها. راجع حولهما نجيب العقيلي، المصدر السابق، الجزء الثاني.
- ٩ - جوساف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعير، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط٤، ١٩٦٤، ص: ٢٠ - ٢١.
- ١٠ - الضبي بغية الملتنن في تاريخ رجال الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧، ص: ٧٦.
- ١١ - صاعد الأندلس، طبقات الأمم، تحقيق حياة أبو علوان، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٥، ص: ١٨٤.
- ١٢ - المصدر السابق، ص: ١٣٨.
- ١٣ - المصدر السابق، ص: ٢٣٩ - ٢٤٠.
- ١٤ -
- ١٥ -
- ١٦ - الزركلي، الإعلام، بيروت، ط٣، ١٩٦٩، ٣: ٢٧١.
- ١٧ - طبقات الأمم، ص: ٣٣.



١٨- المصدر نفسه، ص: ٣٩.

١٩- المصدر نفسه، ص: ٤٠.

٢٠- نفسه.

٢١- فردريك معنوق، تطور الفكر السوسيولوجي العربي، جروس بروس، بيروت، بدون تاريخ، ص: ٢١.

٢٢- طبقات الأمم، مرجع سابق، ص: ٤٠.

٢٣- معنوق، ص: ٢٤.

